الديــن

لعل أبرز ما يميز معتقدات العرب قبل الإسلام هو هذا الاعتقاد البسيط الساذج المتمثل في عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع. والسذاجة بنت الجهل، والجهل يحمل في طياته، وكما هو معلوم، الكثير من مظاهر الميل إلى تصديق الخرافة والأسطورة.

إنها مظاهر الحياة الجاهلية التي تشبه إلى حد بعيد مظاهر الحياة ذاتها عند جميع الشعوب والمجتمعات في طور بداوتها قبل أن تصل إلى طور النضج الفكري والتكامل العقلي. فالعقل العربي في جاهليته، كان على وجه العموم عقلاً قاصراً عن إدراك الحقائق الكلية وفهم العقائد والإيديولوجيات المعقدة.

إنه عقل كبَّلته قيود المادة فاكتفى بما يحيط به من ظواهر محسوسة دون النفاذ إلى ما وراء الطبيعة، ولا استيعاب لحقائق الوجود المجردة والكلية والإلهية.

وعقيدة الجاهليين - من خلال طقوسهم - عقيدة غير ثابتة الأركان، ولا تقوم على أساس واضح من أسس الأيديولوجية الواعية. وإنما هي مجرد عقيدة بدائية تنسجم إلى حد بعيد مع حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية البعيدة عن التخصص والتقدم والعمق والشمول.

إن ديانة العرب قبل الإسلام، كانت تتميز بالتشتت والتجزؤ نظراً لكونها ديانة قبلية تعتمد في المقام الأول على المعبود الخاص بكل قبيلة، سواء تمثل هذا المعبود في الأصنام والأوثان أو في الكواكب وظواهر الطبيعة، أو في الأرواح التي تسكن هذه الأشياء جميعاً. وهي في مجملها عبادات مورست بشكل ساذج وسطحي من قبل العرب.

ومعنى هذا أن العرب لم يكن لديهم إحساس ديني عام يمكن أن يجمع شملهم ويقترب بهم من درجة التوحيد الديني أو حتى الالتفاف حول عدد رئيس للمعبودات بدلاً

من تشتتها وتبعثرها بهذا الشكل. فهذا الإحساس الديني الجماعي هو الذي تقوم الدولة والحضارات - ضمن ما تقوم - على أساسه نظراً لاشتماله على وعي الأمة بذاتها وتميزها عن غيرها، وعن قدرتها على أن يكون لها دور مؤثر في الكون من حولها، بمعنى أن يكون لها ذات تاريخية خاصة.

مما لا شك فيه أن العربي في البادية كان يؤمن بوجود قوى خفية روحية كامنة، مؤثرة في العالم والإنسان، في بعض الحيوانات والطيور والنباتات والجماد، وفي بعض مظاهر الطبيعة المحيطة به كالكواكب، فربط بين هذه الكائنات والموجودات والظواهر الطبيعية وبين القوى الخفية وقدَّسها، ثم تطورت وثنية العربي إلى عبادة قطع الصخور التي يستحسن مظهرها وهيئتها، ومعظمها كانت بيضاء اللون لها علاقة بالغنم والجمل ولبنهما. ومن أمثلة هذه الصخور الجلسد وكان صنماً بحضرموت على شكل «جثة الرجل العظيم، وهو من صخرة بيضاء لها رأس أسود، وإذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان[1].

ومنها ذو الخلصة وكان صخرة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بتبالة بين مكة واليمن، ومنها سعد وكان صخرة طويلة بفلاة بساحل جدة[2] وكانت ذات أنواط شجرة عظيمة خضراء كان العرب في الجاهلية يأتونها كل سنة تعظيماً لها، فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، وكانت هذه الشجرة مغروسة بالقرب من مكة، وكانت ببطن نخلة من مكة ثلاث سمرات (شجيرات) فبني عليها بيت للعزى، وأقيم لها غبغب، أي منحر، ينحرون فيه ضحاياهم[3].

نسج العربي حول الجبال والآبار والأشجار، مما كان يحيط به، قصصاً وأساطير، ورسم صوراً خيالية في الأحجار التي كان يبحث عنها في الوديان، فقد صور خياله الصفا والمروة، وهما صخرتان، رجلاً وامرأة مسخهما الله حجرين، وصوَّر خياله أيضاً إسافاً ونائلة رجلاً وامرأة ممسوخين حجرين على موضع زمزم (لأنهما فجرا في الكعبة).

١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ٢، مادة جلسد، ص ١٥١.

٢- ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٧.

٣- المصدر السابق، ص ٢٥.

ولم يكن تقديس العربي لهذه المظاهر الطبيعية وعبادته لها على أنها تمثل أرباباً، ولكن شعوره نحوها لم يكن يعدو الإجلال، كما أن الأساطير التي نسجها حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالق البشر أو الكائنات، لأنه تارة يستقسم عنده، وتارة يسبه، ومرة ثالثة يأكله إذا كان مصنوعاً من مادة غذائية كالتمر، يأكله في وقت الشدة. ولم يصبح الوثن في تصور العربي رباً إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، عندما تأثر بالوثنية المجاورة، ثم تطورت الوثنية المحلية عند العرب بتأثير الحضارات المجاورة كالبابلية والرومانية واليمنية، وعلى الرغم من تعرض الوثنية اليمنية، فإنها لم تتأثر بوثنية اليمن كما تأثرت بوثنية العرب الشماليين وبالوثنية البابلية.

والوثنية اليمنية تأثرت بوثنية بلاد الرافدين، فإن عبادة النجوم والكواكب كان مصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين، وعن أهل اليمن أخذ عرب الشمال عبادة الكواكب، وقوامها ثالوث كوكبي هو: القمر والشمس والزهرة. هو نفس الثالوث الكوكبي البابلي: القمر ويمثله الإله سين والشمس ويمثلها الإله شمس، وكوكب الزهرة وتمثله الإلهة عشتر[1]. والإله القمري سين له المكانة الأولى في هذه المجموعة الثلاثية باعتباره الأب للإله شمش، وكان يرمز للإله سين بالهلال. أما الإله شمش فأقل مرتبة من الإله القمر في حين كانت الإلهة عشتر تمثل كوكب الزهرة. كذلك كان للقمر أهميته في الوثنية اليمنية، فكان الإله الأكبر، ويليه الشمس، وهي اللات، والإلهة، وكانت في نظرهم زوجة القمر، ومنها ولد عشتر وهو الزهرة. والقمر كان يسمى عند المعينيين (ود)، وعرف أيضاً عند السبئيين وغيرهم باسم (ورخ)، وسين على نفس تسمية البابليين، وهو بس، والمقه، وشهر، وكهل، وأبم، باعتباره أكبر الآلهة سناً والمقدم عليها جميعاً، وكان يطلق على جميع أسماء القمر لفظ مشترك هو «ال» أو «إيل» أي الله أو الإله، ويقابله بعل أو هبل عند العرب الشماليين. وكانت للقمر منزلة عظمى كما هو الحال عند البابليين، وهو الإله الأثير، ومكانته عند عرب الجنوب أسمى من مكانة الشمس «اللات» التي كانت لحرارتها الشديدة في الصيف

١- رشيد الناضوري، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت ١٩٦٩ ص ١١٣.

تعرف باسم: (ذات حميم) أو ذات حمم، ولكن القمر كان هو الدليل الحادي، ورسول القافلة، ولذلك لقب بالحكيم والقدوس والصادق والعادل والمبارك والمعين والحامي[1]. وقد أصبحت هذه الأسماء في الإسلام صفات الله الواحد الأحد.

أما الشمس فصنم عبده العرب قبل الميلاد وبه تسمى كثير من الأشخاص فعرفوا بـ (عبد الشمس)، وقد ذكر الإخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر، لأنه أول من عبد الشمس. والشمس أنثى في العربية الجنوبية، فهي إلهة، ولكنها في كتابات تدمر مذكر، وفي الوثنية البابلية مذكر، وكانت تسمى عند المعنيين باسم نكراح، وعند السبئيين بذات حميم وذات صهرن وذات بعدن وذات برن.

وعثتر في العربية الجنوبية هو إله مذكر، وفي العربية الشمالية إلهة أنثى، وهي (العزى)، وفي بابل إلهة أنثى هي عشتار، أما في الجنوب فهو إله الزهرة، والزهرة هو المعني به في القرآن الكريم «النَّجْمُ الثَّاقِبُ»[2].

وهو أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً، ويعرف بعزيز، نجم الصباح، الذي يسبق الشمس قبل بزوغها.

كان يعبد الزهرة بعض العرب المجاورين للشام والعراق، يعبدونها عند ظهورها. وكانوا يسمونها إذ ذاك (العزى). وكان (سميث) يقول: إن الكوكب Venus أو Lucifer لم تكن إلهة قبيلة وإنما كانت - كما نعرف من مصادر عدة - كانت معبودة عرب الشمال بأجمعهم[3].

ويرى بعض الباحثين أن العرب كانوا يعبدون الله، وكانوا يعظمون الكواكب على أنها أعظم خلقه، ثم تطور تعظيمهم للكواكب فصار عبادة خالصة، وهناك بعض حجارة بركانية اعتقد العرب أنها ساقطة من السماء، فلها صلة بهذه النجوم فعظموا هذه الأحجار، وانقلب التعظيم إلى عبادة، ثم عبدت الأحجار الأخرى وإن لم يظنوا أنها ساقطة من السماء[4].

١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخه شبه الجزيرؤة العربية، ص ٤٠٩-٤١٠.

٢- سورة الطارق: الآية ٣.

٣- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩ ص ٨٣.

٤- د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ١ مكتبة النهضة المصرية ط ١٣، ١٩٨٨، ص ١٦٧.

والاتجاه للتدين استقام أحياناً وانحرف كثيراً، فإذا كان بعض الناس عرفوا الله أو قربوا منه فإن أكثر الناس عبدوا الأشجار والكواكب، والأبطال والحيوانات والأحجار، ويقول موريس ديمومبين: إنه في عهد الجاهلية كانت الآلهة ذات الصفات المحدودة تسيطر كل منها على قبيلة مهمة أو غير مهمة، وكانت عبادة القبيلة لهذه الآلهة قلما تتميز عن عبادة الأوثان المقدسة ومنابع المياه والأشجار. ونجد عند كل قبيلة طقوساً للطواف والوقوف بأشكال معينة، والهرولة في صورة مواكب احتفالية وحمل المشاعل، وكل هذه فيما يبدو تشير إلى عبادة قديمة للشمس، لكن الأجرام السماوية الأخرى كانت تمجد كذلك وقد تبقى في مكة طقس ديني هو التحية الخالصة للهلال عند ظهوره، وهو يرجع إلى الجاهلية دون شك.

ومع هذا فيمكن القول عامة إن عبادة الله كانت أقدم عبادة عرفها البشر منذ آدم، وهي العبادة التي ترتاح لها النفس المفكرة الباحثة، ولكن هذه النفس ما تكاد تصل إلى التوحيد المطلق وما تكاد تستريح إليه حتى تبدأ في البعد عنه، لأن «عقيدة الألوهية المجردة عن الأجرام عقيدة صعبة المنال لا يدركها إلا خاصة الخاصة، وإن أدركوها فسرعان ما ينسونها ويميلون إلى التجسيد.

وهكذا اتجه العالم إلى التجسيد منذ أقدم العهود، وهكذا وجدت الحاجة للأنبياء ليعيدوا للناس الرشد والهداية، وكان كثير من العرب من المهتدين بالفطرة، أو بسبب التعاليم التي وصلت لهم عن طريق صلتهم بإبراهيم وإسماعيل، ولكن أكثر العرب عادوا إلى الأحجار فنصبوها في الكعبة واتجهوا لها عابدين، واختلط دين الفطرة بالوثنية، وأوشكت الوثنية أن تطغى عليه أو طغت فعلاً[1].

كيف تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية؟

تختلف الآراء في الإجابة عن هذا السؤال، فهل يرجع ذلك إلى بقايا «طوطمية» تطورت؟ على أن هذه الكلمة لا تزال موضع بحث في أصلها، وأوضح الآراء عنها هو أن الجماعات الأولى اهتمت بالحيوان أو النبات الذي ارتبط بطعامها اليومي، ثم تطور الاهتمام فأصبح اعتقاداً بأنهم انحدروا منه، ويحملون لذلك اسمه أحياناً (ولعل أسرة

١- د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ١ مكتبة النهضة المصرية ط ١٣، ١٩٨٨، ص ١٦٤-١٦٥.

الجمل والغراب ونخلة من ذلك) ويلزمون أنفسهم بشعائر وطقوس معينة في مواسم خاصة، وتسبب عن ذلك تحريم أكل (الطوطم) فحرمت جماعات أكل البقر. وحرم آخرون أكل الطيور وعندما حرم الطوطم نظر إليه بتقدير، وانتهى هذا التقدير إلى العبادة، ثم تحول ذلك خطوة أخرى فعمل تمثال له يحل محله، وكان ذلك منشأ عبادة الأحجار.

هذه فكرة في غاية الإيجاز عن الطوطمية فهل كانت عبادة الأحجار عند العرب بقايا طوطمية؟ إن الباحث لا يستطيع أن يجيب بالإيجاب أو بالنفي في صورة تأكيد، وكل ما يمكن قوله أن ذلك ممكن، وإن كان يؤخذ على ذلك أن العرب لم يحرموا أكل الإبل والغنم والتمر ولم يتخذوا منها طواطم مع أنها تكون أقدم الأطعمة التي عرفها العرب، ولا نظن أن حيوانات أخرى أو طعاماً آخر كانت أشد ارتباطاً بهم منها[1].

وهناك رواية يذكرها ابن الكلبي تبين لنا تاريخ تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية وسبب ذلك، يقول ابن الكلبي إن عمر بن لحي من خزاعة كان حاجب الكعبة، ثم مرض مرضاً شديداً فذهب إلى البلقاء في الشام ليستحم في ماء هناك، فاستحم وشفي، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

ويمكن أن يعد ذلك بدء دخول الوثنية في قلب الجزيرة العربية، أما انتشارها فيوضحه لنا ابن الكلبي أيضاً في قوله: «وكان الذي سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة. فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم، وحباً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون، ثم سلخ ذلك أنهم عبدوا ما استحبوا من الحجارة ونسوا ما كانوا عليه. واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واتبعوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها»[2].

١- د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ١ مكتبة النهضة المصرية ط ١٣، ١٩٨٨، ص ١٦٥-١٦٦.

٢- ابن الكلبي، الأصنام، ص ٦-٨.

وهـذا تعليـل نرضـاه لأنـه يـبين لنـا السـبب في إقامـة الأصـنام في بلادهـم ومـع ذلـك يحجـون للكعبـة ويعظّمـون مكـة، فالأصـنام الـتي في بلادهـم لم تكـن أول الأمـر إلا حجـارة مـن الحـرم عظموهـا وبنـوا لهـا بيوتـاً وكبروهـا، ، وبقيـت للكعبـة مكانتهـا السامية، ثم لما اختلط عليهم الأمر نقلوا من معبوداتهم الحجرية إلى الكعبة وملؤوها بالأصنام، ولكنهم مع هذا لم ينسوا مكانة الكعبة، وما كانوا يرضون أن يكدسوا معبوداتهم في مكان آخر، أو أن يحجوا إلى مكان آخر. ومن هنا يتضح كيف اختلط دين الحق بعبادة الأصنام، ويقول ابن الكلبي في ذلك - استمراراً لما سبق أن اقتبسناه منه آنفاً -: «واستبدل العرب بدين إبراهيم وإسماعيل غيره.. وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتمسكون بها: من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة، وإهداء البدن، مع إدخالهم في الدين ما ليس منه»[1].

ومثـل هـذا مـا آل لـه أمـرهم مـع إسـاف ونائلـة وهمـا في الأصـل كمـا يـروي ابـن الكلبي رجل وامرأة من جرهم وكان الرجل يعشق المرأة ثم قدما للحج، فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت فواقعها، فمُسخا حجرين، فوضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام، عبدا معها[2].

ويرى بعضهم أن الأوثان لها صلة بالقبور والحجارة التي تعودوا أن ينصبوها على قبور الأبطال، أو أنها تجسيد لأبطال مشاهير احتلوا عند العرب مكان التقديس، فلما ماتوا اتخذوا لهم التماثيل، وأجلوها ثم عبدوها[3].

الحنفاء:

إن الحنيفيـة ليسـت دينـاً بـالمعنى الـذي هـو عليـه الإسـلام والمسـيحية واليهوديـة. صحيح أنها تقول بوحدانية الله إلا أنها ليست ديانة كتاب أو وحي موحى. هي اعتقاد بوجود إله واحد أحد، دون أن يكون هناك وصايا أو تعاليم أو طقوس، ما عدا الحج إلى الكعبة، هذه الحركة الحنيفية ظهرت عند العرب قبل الإسلام، ولا سيما عند أولئك الذين رفضوا عبادة الأوثان، ولم يعتنقوا المسيحية أو اليهودية وسمي أتباعها

١- ابن الكلبي، الأصنام، ص ٦.

٢- المصدر السابق، ص ٩، ٢٩.

٣- د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ج١، ص ١٦٧-١٦٨.

بالأحناف أو الحفناء، وكلها جمع لحنيف «صفة إبراهيم عليه السلام». الواردة في القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [1]

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [2]

يبدو أن معظم ما نعرفه عن الحنيفية ومضمون تعاليمها مأخوذ من الكتب المقدسة، القرآن، الإنجيل، التوراة.

يعتبر إبراهيم عليه السلام، أبو الأنبياء، أول مبشّر بالألوهية ووحدانيتها. ويبدو أن ابنه إسماعيل من هاجر، هو الذي ينتسب إليه العرب. وتوالت ذرية إسماعيل، وعظّم أبناؤه البيت الذي بناه جدهم ووالدهم، وأصبح محجة للناس. وقيل في معنى الحجر الأسود، أن البيت كاد أن ينتهي بناؤه، وكان ينقصه حجر واحد، فذهب الولد ليأتي بواحد، فإذا الأب قد ركّب حجراً مكانه أسود اللون، أتاه به جبريل.

هذه الروايات المنقولة عن الطبري والمسعودي يخالفها الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، ويعتبر أن باني الكعبة هو «شيت» ابن آدم الذي قدم مكة، وأن الطوفان قد هدمها، فأعاد إبراهيم وابنه إسماعيل بناءها.

وبعد الفراغ من بناء البيت طلب جبريل من إبراهيم وابنه إسماعيل أن يطوفا بالبيت سبعاً، ثم بعد الطواف أن يصليا خلف المقام ركعتين، ثم رأى جبريل إبراهيم المناسك كلها «الصفا - المروة ومنى ومزدلفة وعرفة».

والعرب كانت تطوف بالبيت، وكان للتطواف سنّة يجري عليها، لها عادتها وتقاليدها حيث أبطلها الإسلام فيما بعد.

ومن طقوس الحنيفية أيضاً الرجم أي رمي الحجارة، حيث قيل فيها أن إبراهيم لما أتى المناسك، عرض له الشيطان عند حجرة العقبة فرماه بحصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له في الحجرة الثانية، ثم الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض[3].

١- سورة البقرة: الآية ١٣٥.

٢- سورة آل عمران: الآية ٦٧.

٣- الأب جرجس داود داود: أديان العرب قبل الاسلام، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٩، ط ٢ ص ٢١٥.

كذلك درجت العرب على كسوة الكعبة في الجاهلية، ولما جاء الإسلام أقرَّ بذلك. وكانت الأرض المحيطة بالكعبة، تعتبر أرضاً مقدسة لا يجوز القتال فيها، كما كانت أشهر الحج إليها أشهراً حراماً. وكان الناس يأتون الكعبة من مختلف الأقطار وهم على أوثان ومعتقدات مختلفة. وكانوا يجلبون معهم الأضاحي قرباناً أو شكراً، وهم يتمثلون في ذلك واقعة إبراهيم الذي أمر بالتضحية بابنه، فافتداه اللّه بكبش غنم.

وهكذا نرى أن الحنيفية انتشرت في بلاد العرب والحجاز لا سيما بعد هجرة إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام إليها من بلاد مصر وفلسطين، وبعد زواجه من قبيلة الجرهمية وحلول هؤلاء في واد قرب مكة، حيث هناك ماء زمزم. ويتكاثر ولد إسماعيل وينتشرون في شبه الجزيرة العربية وينشرون معهم اعتقادهم الحنيف.

وبعد موت إسماعيل بقي الحج إلى مكة والطواف بالبيت، ومع الأيام اندثر هذا الاعتقاد وأخذت تخف وطأته شيئاً فشيئاً، وعادت عبادة الأصنام لتزدهر. والحقيقة أن أولئك الذين كانوا يظعنون من مكة كانوا يحملون معهم حجارة من الحرم، وأنى كانوا ينزلون كانوا ينصبونه، ويطوفون حوله كطوافهم حول الكعبة. لأجل ذلك كانوا يستنسبون من الأحجار ما يعجبهم ويجعلونها آلهتهم فيعبدونها[1].

اليهودية والنصرانية:

من الصعب أن نتحقق تاريخياً من بدء وجود اليهود في الجزيرة العربية فالبعض من الثقات يظن أن وجودهم باليمن يرجع إلى أيام سليمان، والبعض إلى عهد سقوط القدس على يد بنوخذ نصر. ومن الجائز أن يكون نزوحهم إلى الجنوب قد تزايد مباشرة بعد تخريب الهيكل الثاني بقليل. ويظن «نكسن» أن أقدم المستعمرات اليهودية في الحجاز يرجع إلى زمن سقوط القدس بيد «تيطس أوهادريان» وعلى كل فقد كان في القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب وهي أهمها. وكان يهود يثرب ثلاث قبائل هي بنو نضير وبنو قينقاع وبنو قريظة. ومن المعتقد أنهم حملوا معهم توراتهم بتعاليمها ومعلوماتها إلى جانب أساطيرهم

١- د. سميح دغيم، أديان ومعتقدات العرب قبل الاسلام، بيروت ١٩٩٥ ص ٥٣.

وخرافاتهم، كما أنهم أدخلوا على العربية كلمات ومصطلحات دينية جديدة. ولقد كانوا بارعين في الأعمال اليدوية والزراعية، وكانوا مهرة في صنع الأسلحة والمصنوعات. وقد اندمجوا بالعرب - لا كما يظن البعض - واعتنقوا عاداتهم واتخذوا أسماءهم حتى أن أسماء التوراة لم تكن شائعة إلا بين نفر قليل، كما كانت أسماء قبائلهم عربية محضة لا تفيد عن أصلهم شيئاً[1].

وتجدر الإشارة إلى أن اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، لأنها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني الروماني، ولأنها كانت منتشرة في الإسكندرية وعلى شواطئ البحر المتوسط حيث الثقافة اليونانية.

وامتدت ديانتهم - وإن ندر امتدادهم بأنفسهم - إلى ما وراء يثرب. فقد تهود الكثير من العرب، قال اليعقوبي: «فأما من تهود منهم فاليمن بأسرها.. وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان من جذام»[2].

وقال ابن قتيبة: «وكانت اليهودية في حمير وفي بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة»[3].

ولم تكن المسيحية بأقل انتشاراً من اليهودية، ويرى شيخو في كتابه «النصرانية وآدابها بين عرب الجزيرة» أنها وجدت لها مكاناً في أكثر أصقاع البلاد العربية في مشارف الشام والحجاز واليمن والبحرين وغيرها. وقد تنصر عدد كبير من القبائل.

يقول ابن واضح: «وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى، ومن تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب، ومن اليمن طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم»[4]. ويقول ابن قتيبة: «إن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة»[5].

١- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ٢٨.

٢- ابن واضح اليعقبوني، ج١، ص ٢٨٩.

٣- ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢٩٩.

٤- تاريخ ابن واضح اليعقوبي، ج ١، ص ٢٩٨-٢٩٩.

٥- ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢٩٩-٣٠٠.

فذيوع النصرانية في بلاد العرب كان من شأنه نشر تعاليمها بين الأعراب، ومن الأخبار الأدبية ما يفيد أن القسس والرهبان كانوا يؤمون الأسواق العربية في الجاهلية ويبشرون ويذكرون الحساب والعذاب والجنة والنار، وخير مثل نضربه خطيب إياد وراهب نجران، قس بن ساعدة، فلا بد وأن تكون النصرانية إذاً، قد أدخلت على العربية ألفاظاً وتراكيب لم يكن يعرفها العرب، وفوق هذا فإن النصرانية كانت قبل دخولها جزيرة العرب تحمل في ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو شأن اليهودية.

الأصنام والأوثان والأنصاب:

وقد سبق أن أشرنا إلى أصنام العرب وقلنا إنه كانت لهم أصنام في الكعبة أو حولها، كما كانت لهم أصنام في بيوتهم، وأخرى في مدنهم، وفي مواقع أخرى لهم، ويجدر بنا قبل أن نذكر أهم هذه الأصنام أن نوضح أن كلمة الأصنام قد تذكر ويراد بها الأوثان والأنصاب، فكل منه قد تنوب عن النوعين الآخرين في الاستعمال العام، وقد سمى ابن الكلبي كتابه «الأصنام» مع أنه تحدث فيه عن كل هذه الأنواع، ولم يوضح ابن الكلبي الفرق بين هذه الأنواع توضيحاً شافياً ولعله كما يلي:

النصب: صخرة ليست على صورة إنسان، ويغلب ألا يكون لها صورة خاصة.

الوثن: ما كان على صورة إنسان من حجر.

الصنم: ما كان على صورة إنسان من معدن أو خشب.

وأهم أصنام العرب:

اللات:

ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء بنت «ثقيف» عليها بيتاً، صاروا يسيرون إليه، يضاهون به الكعبة، وله حجبه، وكسوة ويحرمون واديه. وكانت سدانته لآل «أبي العاص» ابن «أبي يسار» ابن مالك من ثقيف، أو لبني عتاب بن مالك. وكانت قريش، وجميع العرب يعظمونه أيضاً، ويتقربون إليه. وقد كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز.

ولا يستبعد أن تكون اللات صخرة من هذه الصخور المقدسة التي كان يقدسها الجاهليون، ومن بينها الحجر الأسود، الذي كان يقدسه أهل مكة، ومن كان يأتي إلى مكة للحج، وفي غير موسم الحج، لذلك كانوا يلمسونه ويتبركون به. واللات من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً. وقد ورد اسمها في نصوص «الحجر وصلخد وتدمر» وهي من مواضع النبط.

وقد انتهت إلينا أسماء رجال أضيفت إلى اللات مثل «وهب اللات» و«تميم اللات» و«زيد اللات»، «شيع اللات».

وقد اقسموا باللات كما أقسموا بالأصنام الأخرى.

العزّى:

والعزّى صنم أنثى. وأما الذي اتخذ العزّى - على رواية ابن الكلبي - فهو «ظالم بن أسعد» وقد ذكر الطبري روايات عديدة تفيد أن العزّى شجيرات ولكنه أورد روايات أخرى تفيد أنها حجر أبيض. فنحن إذن أمام رأيين:

رأي يقول إن العزّى شجيرات ورأي يقول: إنها حجر.

ويقول ابن الكلبي: ولم تكن قريش بمكة، ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم «العزّى» ثم مناة.

وكان فيمن يتقدم إلى العزّى بالنذور والهدايا والد خالد بن الوليد.

مناة:

وهو من الأصنام المذكورة في القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝ ﴾ [1]

وهذه الأصناف الثالثة هي إناث في نظر الجاهليين. وموضع مناة بالشلل على سبعة أميال من المدينة. وقيل إنه بموضع «ودان» أو في موضع قريب منه.

وأما سدنته فهم «الغطاريف» من الأزد. وذكر أن تلبيته كانت:

١- سورة النجم: الآيات ١٩-٢٠.

لبيـــــك اللـــــهم لبيـــــك
لـــــولا أن بكـــــراً دونـــــك
يـــبرك النـــاس ويهجرونـــك
ومـــا زال حـــج عـــثج يأتونـــك
أنـــا علـــى عـــدواتهم مـــن دونـــك

ويظهر من أقوال ابن الكلبي أن هذا الصنم كان معظماً وبخاصة عند الأوس والخزرج، أي أهل يثرب، ومن يأخذ مأخذهم من عرب المدينة، والأزد، وغسان، فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك، ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك وفي جملتها قريش، وهذيل، وأزد شنوءة، وخزاعة.

هبل:

يقول ابن الكلبي: وكانت لقريش أصناماً في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها هبل، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب. وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

وكان يقال له: «هبل خزيمة». وكان في جوف الكعبة، قدامه سبعة أقداح مكتوب في أولها: «صريح» والآخر «ملصق» فإذا شكوا في مولود أهدوا إليه هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر على ما كانت فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالأزلام عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله[1].

وكانت تلبية نسك «هبل»: لبيك اللهم لبيك. إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح. يحسدنا الناس على النجاح.

١- ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٧-٢٨.

وذهب بعض المستشرقين إلى أن هبل هو رمز إله القمر وهو إله الكعبة، وهو الله عند الجاهليين. وكان من شدة تعظيم قريش له أنهم وضعوه في جوف الكعبة، وأنه كان الصنم الأكبر في البيت. وقد ورد اسم هبل في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر.

ود:

تمثال رجل عظيم معه أدوات الحرب، وكان بدومة الجندل لكلب وقضاعة وكان أول من عبده منهم عذره، وابنه عامر بن عوف هو أول سدنة ود. ومن نسله تتابعت سدنة هذا الصنم. وكان البعض يهدونه اللبن. وود من الآلهة الجنوبية، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالوث الأب والأم والابن.

سواع:

أما سواع فكان موضعه «برهاط» من أرض ينبع، وذكر أنه كان صنماً على صورة امرأة. وهو صنم هذيل.

وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته - كعادته - إلى عمرو بن لحي - وذكر ابن حبيب أنه كان بنعمان وأن عبدته بنو كنانة وهذيل ومزينة، وكان سدنته بنوها صلة من هذيل. وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك.

يغوث:

وكانت تعبده مذحج وأهل جرش، وكان موضعه بأكمة في اليمن يقال لها مذحج ولا يعرف عنه الشيء الكثير. ويبدو أنه كان من الآلهة المحلية التي لم يشع ذكرها أو تنتشر عبادتها. وفي اسمه واسم يعوق ما يشير إلى أرواح حافظة.

يعوق:

ويعوق أيضاً في حملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل. وهو صنم خيوان، وخيوان قرية تقع على بعد ليلتين من صنعاء وكان يعبده بنو همدان.

نسر:

وكان مكانه في موضع من أرض سبأ يقال له بلخع، وكانت تعبده حمير ومن والاها، وما زالوا يعبدونه حتى هوَّدهم ذو نواس الحميري، لذلك لم يشع ذكره كثيراً ولم يتسم به أحد[1].

عميانس:

هو صنم خولان، موضعه في أرض خولان، وكان يقدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث.

رضى:

ذكر ابن الكلبي أنه كان لبني ربيعة بن كعب، ثم تميم، فهدمه «المستوغر» وهو عمرو بن ربيعة بن كعب، هدمه في الإسلام وتعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم. وقد ورد اسم «عبد رضى» بين أسماء الجاهليين. ويظهر أن قبيلة طيء كانت قد تعبدت له كذلك.

ورضى من الأصنام التي عبدها قوم ثمود. وقد ورد اسمه في كتابات ثمودية عديدة وكانت عبادته منتشرة بين العرب الشماليين، وورد في نصوص تدمر، وبين أسماء بني إرم، كما ورد في كتابات الصفويين. ويظن أنه يرمز إلى كوكب.

عبدة الكواكب والنار:

رأينا طائفة من العرب عبدت الكواكب والنجوم كالشمس والقمر والزهرة، ونضيف إلى هذه الكواكب الثلاثة كواكب أخرى كالدبران والعيوق والثريا والشعرى والمرزم وعطارد وسهيل. فكنانة كانت تعبد القمر والدبران، وجرهم كانت تسجد للمشتري، وطيء عبدت الثريا والمرزم وسهيل، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم، وطائفة من تميم عبدت الدبران، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعرى العبور وهي الشعرى اليمانية.

١- ابن الكلبي: الأصنام، ص ٥٦-٥٧.

وأول من سن للعرب عبادة الشعرى العبور هو أبو كبشة، وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف أبو آمنة أم الرسول ﷺ، والشعرى هي التي أشار إليها الله تعالى في قوله:

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ [1]

والشعرى من نجوم الجوزاء وسمي العبور لأنه عبر المجرة، وانضم إلى سهيل فصار يمانياً. وكان الشعرى العبور في الأصل مجتمعاً مع الغميصاء، فلما عبر الشعرى المجرة بقيت الغميصاء، والشعرى أكثر ضياءً من الغميصاء.

والثريا مجموعة من النجوم الصغيرة مجتمعة، عددها يصل إلى عشرين نجماً، أما المرزم فهو نجمان، أحدهما يتبع الشعرى العبور ويسمى «كف الكلب»، والآخر يعرف «بالكوكب الأخفى»[2].

وقد عرف عبدة الكواكب بالصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [3]

وهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر، فالصابئة المؤمنون هم الصابئة الحنفاء والصابئة الكافرون هم المشركون. وكان المشركون من الصابئة يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ويصورونها في هياكلهم، وكان لكل كوكب يعبدونه هيكل، فللشمس هيكل، وللقمر هيكل، وللزهرة هيكل، وللمريخ هيكل.. الخ، وأصل دين هؤلاء الصابئة، فيما زعموا، أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً، ولهذا سموا صابئة أي خارجين، فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين.

١- سورة النجم: الآية ٤٩.

٢- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٤١٦-٤١٧.

٣- سورة البقرة: الآية ٦٢.

أما الحنفاء منهم فقد شاركوا أهل الإسلام في الحنيفية، بينما شارك المشركون منهم وعباد الأصنام.

كذلك عرف العرب عبادة النار أو المجوسية عن طريق الفرس في الحيرة، وفي اليمن، وفي البحرين، وكانت المجوسية عند عرب الجاهلية في تميم: منهم زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة، ومنهم الأقرع بن حابس، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان.

كذلك انتقلت الزندقة إلى العرب من الحيرة، ووجدت الزندقة في قريش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق التجارة. والزندقة نوعان: زندقة ثنوية، وهي القول بالنور والظلمة، ومنها المزدكية والمانوية والزرادشتية، وزندقة دهرية لقول من يؤمن بها بالدهر، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (١)

وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا «بالطبع المحيي والدهر المفني»(٢).

١- سورة الجاثية: الآية ٢٤.

٢- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٤٢٨.